﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾

[التَّغابن: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّقوى سببٌ لدرء الفتنة

لمّا ذكرت الآية السّابقة أنَّ المال والولد من أسباب الفتنة جاءت هذه الآية ببيان كيفيَّة الخروج من هذه الفتنة، وذكرت أنَّ تقوى الله على قدر الاستطاعة والجهد، والسَّمعَ والطّاعة، والإنفاقَ درءًا لشحِّ الفتنة، وجلبًا لفلاح الآخرة هي الميزانُ الَّذي يقيم عليه المؤمن أمرَ دينه كلَّه، وبها يتَّقي هذه الفتنَ الَّتي تهبُّ عليه من كل جهة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوقَ﴾: يقال: وقيتُ الشَّيءَ أقيه وقاية ووقاء، والوقاية: حفظ الشَّيء ممّا يؤذيه ويضرُّه. قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 11]، ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦﴾ [الدُّخان: 56] والتَّقوى: جعلُ النَّفس في وقاية ممّا يخاف، وصارت التَّقوى في تعارف الشَّرع حفظَ النَّفس عمّا يُؤثِّمُ، وذلك بترك المحظور، ويتمُّ ذلك بترك بعض المباحات[2].

2) ﴿شُحَّ﴾: بخلٌ مع حرصٍ، وذلك فيما كان عادةً، قال تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النِّساء: 128]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ [الحشر: 9]. يقال: رجل شَحيحٌ، وقوم أشِحَّةٌ، قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾ [الأحزاب: 19]، ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الأحزاب: 19][3].

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 983.
(2) الراغب، المفردات: (وقى).
(3) الراغب، المفردات: (شحح).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّقوى سبيل الوقاية من الفتن في الدُّنيا والآخرة

في الآية الكريمة دعوةٌ إلى بذل أقصى قدرات النَّفس لبلوغ منزلة التَّقوى بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾؛ أي: ابذلوا في تقواه جهدَكم وطاعتكم، واسمعوا مواعظه وأوامره سماعَ قبولٍ، وأطيعوه في كلِّ ما أمر، وأنفقوا ممّا رزقكم يكن خيرًا لكم وأفضل، ولا يكن الولد والأهل مدعاةً للجبن والبخل، واعلموا أنَّ مَن يوقَ شح نفسه فقد فاز في الدُّنيا والآخرة، وكان من أهل الفلاح[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

الإيمانُ سبب التَّقوى

دلَّت الفاءُ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ على السَّببيَّة؛ لأنَّ الايمان سببٌ للتَّقوى؛ يعني: ابذُلوا في تقواه جهدَكم وطاقتكم[2]؛ للوصول إلى الإيمان، ويجوز أن تكون الفاءُ فصيحةً وتفريعًا على ما تقدَّمَ؛ أي: إذا علمتم هذا فاتَّقوا الله فيما يجب من التَّقوى[3]، في معاملة الأولاد والأزواج ومصارفِ الأموال، وكونُ الفاء فصيحة يقتضي الحذف، وغرضه التَّركيز على قيمة التَّقوى؛ وقايةً للنَّفس ممّا يُؤذيها.

سرُّ التَّعبير بالتَّقوى دون الخوف:

التَّقوى رأس الأمر وذروة سنامه

آثرَ القرآن التَّعبير بالتَّقوى في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ دون (خافوا)؛ لأنَّ الخوف يتعلَّق بالمستقبل، ومعناه توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونة أو معلومة؛ أمّا التَّقوى فمعناها: أنْ يجعل العبد لنفسه وقايةً ممّا يخاف الوقوعَ فيه، بأنْ يحفظَها ممّا يوقِعُها في غضب الله وعقابه في الحال والاستقبال، ولأنَّ التَّقوى يندرجُ تحتها معاني الخوف والخشية والرَّهبة؛ فهي أعمُّ هذه الألفاظ.

(1) محمد محمود حجازي، التفسير الواضح: 28/ 87.
(2) محمد ثناء المظهري، التفسير المظهري: 9/ 316.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 286.

الغرضُ من الأمر في ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

النُّصح والإرشاد

الغرضُ من الأمر في الآية الكريمة النُّصح والإرشادُ إلى رعاية حقِّ الله في التَّعامل مع الأولاد والأزواج ومصارف الأموال، فلا يصُدَّنَّكم حبُّ ذلك والشُّغلُ به عن الواجبات، ولا يُخرِجَكم الغضبُ ونحوه عن حدِّ العدل المأمور به، ولا حبُّ المال عن أداء حقوق الأموال وعن طلبها من وجوه الحلال، فالأمرُ بالتَّقوى شاملٌ للتَّحذير المتقدِّم وللتَّرغيب في العفو[1]، ففي الأمر إدماجٌ بين عدَّة أغراضٍ: النُّصحِ والإرشاد، مع التَّحذير والتَّرغيب.

نكتةُ حذف المتعلَّق في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

قصدُ العموم الشّامل لجميع الأحوال

حُذِفَ متعلَّقُ (اتَّقوا) لقصد تعميم ما يتعلَّق بالتَّقوى من جميع الأحوال المذكورة؛ وبذلك يكون هذا الكلامُ كالتَّذييل؛ لأنَّ مضمونه أعمُّ من مضمون ما قبله[2].

دلالةُ التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ دون لفظ الرُّبوبيَّة:

مناسبةُ سياق التَّحذير مع لَحْظِ معنى الهيبة والقهر والجلال

جاءَ التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ دون لفظ (الرَّبِّ)؛ لأنَّ لفظ الجلالة يدلُّ على الهيبة والقهر والجلال، وهو مناسبٌ للسّياق في التَّحذير من الفتنة بالأموال والأولاد؛ بخلاف التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة؛ فإنَّه يأتي في مقام الإنعام والتَّربية، ولأنَّ التَّعبير بلفظ الجلالة يوجبُ أخذَ الحذر من عذاب الله بالتَّمسُّك بطاعته وسماع أوامره.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾:

القصد إلى عموم الطّاعات في عموم الأوقات

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بـ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾؛ لأنَّها مصدريَّة ظرفيَّة؛ أي: اتَّقوا الله في كلِّ أوقاتكم قدرَ استطاعتكم، وسرُّ الظَّرفيَّة تعميمُ الأزمان كلِّها وتعميمُ الأحوال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 287.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 287.

تبعًا لعموم الأزمان، وفيه أيضًا تعميمٌ للاستطاعات؛ حتّى لا يتخلّى المؤمنون عن التَّقوى في شيءٍ من الأزمان، وجُعلت الأزمانُ ظرفًا للاستطاعة لئلّا يُقَصِّروا بالتَّفريط في شيءٍ يستطيعونه فيما أمروا بالتَّقوى في شأنه، ما لم يخرج عن حدِّ الاستطاعة إلى حدِّ المشقَّة، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185][1].

بلاغةُ التَّعبير بقوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾:

اتِّساع المعنى في تعدُّد المراد

تظهرُ بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ في دلالتها على اتِّساع المعنى؛ لأنَّ الاستطاعة هنا تَحتَمِلُ أنْ يكون الأمرُ من باب التَّسهيل والتَّخفيف، وتحتمل أنْ يكون من باب التَّشديد؛ بمعنى: أنَّه ما وجدت الاستطاعة فاتَّقوا؛ أي: لا تُبْقوا من الاستطاعة شيئًا إلّا وتفعلونه، وهذا يرجعُ إلى أنَّ المعنى: فاتَّقوا الله ما تيسَّر لكم، أو ما أمكنكم من غير عسرٍ[2].

وفي ذكر ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ احتراسٌ؛ ذلك أنَّ التَّقوى في شأن المذكورات وغيرها قد يَعرِضُ لصاحبها التَّقصيرُ في إقامتها حرصًا على إرضاءِ شهوة النَّفس في كثيرٍ من أحوال تلك الأشياء، فزيدَ تأكيدُ الأمر بالتَّقوى بقوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[3].

بلاغةُ التَّعبير هنا بالاستطاعة، وفي آل عمران بقوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾:

التَّقوى على قدر الاستطاعة هي حقُّ التَّقوى

لا تعارضَ بين الآيتين، فمَن اتَّقى الله ﷻ قدرَ استطاعته فقد اتَّقاهُ حقَّ تُقاتِه، وذلك بامتثاله للأوامر واجتنابه للنَّواهي، ويجوز أنْ يكون المرادُ المبالغةَ في التَّقوى؛ حتّى لا يتركَ شيئًا من المستطاع.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ آيةَ آل عمران في أصل الدّين وهو التَّوحيد، بدليل قوله بعدها: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: 102]؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 287.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 205.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 288.

أمّا آيةُ التَّغابن فهي في مقام الفروع والأعمال، بدليل قوله تعالى قبلها: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾، وعلى كلٍّ فإنَّ المقصود أنْ يبذل المسلم قصارى جهده في أداء ما كلَّفه الله به.

وذهب بعضهم إلى أنَّ آية التَّغابن ناسخةٌ لموضع آل عمران، والرّاجحُ عدم النَّسخ، ويُفسَّرُ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ بما سبَقَ من بذل الجهد، بأنْ يجاهدوا في الله حقَّ جهاده، ولا يأخذَهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على آبائهم وأبنائهم[1].

دلالة الواو في عطف هذه الأفعال:

الجمع بين الطّاعات باجتناب المنهيّات وامتثال المأمورات

آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بالواو في عطف هذه الأفعال: ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ﴾؛ لأنَّها لمطلق الجمع في الحثِّ على جمع التَّقوى والسَّماع والطّاعة والإنفاق على أحسن الوجوه، ويضاف إلى ذلك أنَّ العطف على الأمر بالتَّقوى ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ فيه إطنابٌ بعطف الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمام بالسَّمع والطّاعة، ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّقوى تتبادر في ترك المنهيّات؛ فإنَّها مشتقَّة من (وقى)؛ فتقوى الله أن يقيَ المرء نفسه ممّا نهاهُ الله عنه، فكان التَّصريح بالمعطوفات اهتمامًا بكِلا الأمرين: اجتنابِ المنهيّات وامتثالِ المأمورات؛ لتحصلَ حقيقة التَّقوى الشَّرعيَّة[2]، فكانت الواوُ هي الدّاعيةَ إلى هذا المعنى بجمع المتعاطفات الإنشائيَّة.

سرُّ التَّعبير بالسَّماع مع دلالة الأمر:

السَّماعُ سبيل الاستجابة والقبول

آثرَ القرآن الكريم التَّعبير بالسَّماع في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾؛ لأنَّه يحتمل معنيين: أحدُهما: أصغوا إلى ما يُنزَّلُ عليكم من كتاب الله، وهو الأصل في السَّماع. الآخَرُ: أنَّ معناه: اِقبَلوا ما تسمعون،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/ 6623، والشنقيطي، أضواء البيان: 10/ 66، ومحمد صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 173، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 30.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 288.

وعَبَّر عنه بالسَّماع لأنَّه فائدته[1]، ويدلُّ الأمرُ بالسَّمع على لزوم تكليفاتِ الشَّريعة والإقبالِ على سماع مواعظِ النَّبيِّ ﷺ، وهذا كمالُ التّقوى قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزُّمر: 17 - 18][2].

بلاغةُ المجاز في قوله: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾:

تحقيقُ اللّازم والملزوم بكلمة واحدة

تظهرُ بلاغةُ المجاز في التَّعبير بقوله: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ في دلالتِهِ على الامتثال وتحصيل المأمور، وهو أخصرُ؛ لأنَّه بكلمةٍ واحدة تحقَّقَ الملزومُ – وهو طلبُ الإصغاء – ولازمُه وهو طلبُ الامتثال، ففيه مجازٌ مرسلٌ بإطلاق السَّبب وإرادة المسبَّب بقرينة أنَّ الطَّلب من الأعلى إلى الأدنى.

دلالةُ الأمر بالطّاعة:

الدَّعوة إلى كمالِ الانقياد

جاء الأمرُ بالطّاعة في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾؛ للدَّلالة على كمال الانقياد لأوامرِ اللّه ورسوله، ولا ينبغي أن يكون المالُ والولد عائقًا عن الطّاعة؛ بل يجب تقديمُ مرادِ اللّه على هوى الإنسان؛ لأنَّ الطّاعة تقالُ في الائتمارِ لِما أمرَ والارتسام فيما رسمَ، ولأنَّ عدم الطّاعة يكون معصيةً، وفي هذا ذمٌّ وتوبيخٌ لمَن تنكَّبوا طريقَ الطّاعة[3].

سرُّ التَّعبير بالإنفاق ودلالةُ الأمر به:

التَّحريض على الإنفاق بمرتبتيه (الوجوب والنَّدب)

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالإنفاق؛ لأنَّه لفظ عامٌّ، فيشملُ الإنفاق بالمال وغيره، وقد يكون واجبًا وتطوُّعًا، وآيات القرآن في هذا كثيرةٌ، ولأنَّ الإنفاق يقال للشَّيء الَّذي مضى ونفذ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ما أنفقه الإنسان خرج عن سلطته وأصبح حقًّا للفقير، وفي ذلك تزكية للإنسان لعدم فتنته بالمال، بدليل أنَّه أخرجه عن

(1) ابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 266.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 288.
(3) الراغب، المفردات: (طوع).

حبٍّ وطواعيةٍ. وعبَّر بالأمر بقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾؛ لِما فيه من التَّحريض على الإنفاق بمرتبتيه: الوجوب والنَّدب، وفي الأمر إرشادٌ إلى قيمة الإنفاق درءًا للشُّحِّ الَّذي يعتري النَّفس.

نكتةُ حذف متعلَّقات هذه الأفعال:

إيثارُ العموم وبيان أهمّيَّة الاتِّصاف بالمتعلَّق المحذوف

حُذفت متعلَّقاتُ الأفعال، وتقديرُها: "واسمعوا مواعظه تعالى، وأطيعوا أوامرَهُ ﷻ، وأنفقوا ممّا رزقَكم في الوجوه الّتي أمركم بالإنفاق فيها خالصًا لوجهه جلَّ شأنُه"[1]؛ بيانًا للعموم الحاصل في الحذف، وكأنَّ التَّعبير: ليكنْ منكم تقوى وسماعٌ وإطاعةٌ وإنفاقٌ؛ كي تتَّصفوا بذلك، وفي ذكر المتعلَّق تضييقٌ للمعنى وتسكيرٌ عليه.

دلالةُ عطف الأمر بالإنفاق على الأمر بالتّقوى:

الإنفاق من علامات التَّقوى

عطف القرآن الكريم الأمرَ بالإنفاق في قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ على الأمر بالتّقوى مع وجود فاصلٍ بينهما، وهما السَّمع والطّاعة في قوله: ﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾، وذلك من باب التَّخصيص بعد التَّخصيص؛ لأنَّ الإنفاق ممّا أمر الله به، فهو من المأمورات[2]، وهو علامة التّقوى، وفي ذكر الإنفاق إشارةٌ إلى أنَّ الأولاد مبخلةٌ، فكان الإنفاقُ درءًا للبخل، ويضاف إلى ما سبق أنَّ ذكر الإنفاق يناسبُ لفظة ﴿أَمْوَٰلِكُمْ﴾ في الآية السّابقة، ثمَّ إنَّ في ذكر الأمرِ ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ تمهيدًا لِما يأتي بعده: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾، ففعلُ الأمر رابطٌ بين سابقٍ ولاحق؛ إقامةً للنَّظم بوَصْلِ أركانه ومقدِّماته ومختتماته.

دلالةُ التَّرتيب في الأوامر:

التَّقوى تتطلَّبُ الانقياد والطّاعة والإنفاق

بدأت الآيةُ مجموعَ الأوامرِ بالأمرِ بالتَّقوى؛ لأنَّها أصلُ الخوف من الله، فكلُّ ما بعدها مترتِّبٌ عليها، ولأنَّها تحتاج إلى من ينفِّذها، فجاءَ الفعلُ ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ الدّالُّ على الإصغاء والانقياد والتَّسليم، وقد

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 322.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 288.

عُطف عليه الفعل (أطيعوا)؛ ليكونَ تأكيدًا لأمر السّماع والتّسليم، وعُطف الفعل ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ على ما قبله للتّأكيد على كمال التّقوى، وليكونَ توطئةً للجملة الشَّرطيَّة بعده ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾، فكان التّرتيب هنا بين الأفعال ليُسلِم كلٌّ فعلٍ قيادَهُ للآخرِ بحيث يكتمل المعنى من كلِّ أنحائه.

ويمكنُ أن يقال في سرِّ التَّرتيب: إنَّ الأمر بالتَّقوى في حدود الاستطاعة مرجعُهُ إلى القلب، وما انعقد عليه من إيمان بالله ومراقبة لأوامره ونواهيه، فهذا جانبٌ يُمثِّلُ الصِّلةَ بين العبد وربِّه، وحسابُه في هذا على الله. وهناك جانبٌ آخرُ من الإنسان فيما يتَّصلُ بأوامر الله ونواهيه، وهو الجانب الَّذي يَمَسُّ المجتمع الَّذي يعيش فيه، والَّذي تحكُمُه أوامرُ هذا الدّين الَّذي يدينُ به، وهو الجانبُ الظاهر، الَّذي يتمثَّل في الاستماع لأولي الأمرِ والطّاعة لهم، وتقديم المال المطلوب منه فيما يبدو من ظاهرِ حاله لوليِّ الأمر[1]، فكان التَّرتيب جمعًا لجانبي القلب الخفيِّ والظاهر المرئيِّ.

تعدُّدُ الموقع الإعرابيِّ لقوله: ﴿خَيْرًا﴾:

التَّعدُّد الإعرابيُّ ثراءٌ للمعنى

في نصبِ لفظة ﴿خَيْرًا﴾ اتِّجاهاتٌ مختلفة، **فالاتِّجاهُ الأوَّلُ**: مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ؛ أي: وائتوا خيرًا لأنفسكم؛ أي: افعلوا ما هو خيرٌ لها وأنفعُ كما ذكر سيبويه، وهذا تأكيدٌ للحثِّ على امتثال هذه الأوامر، وبيانٌ لكون الأمور خيرًا لأنفسهم من الأموال والأولاد. **والاتِّجاهُ الثّاني**: خبرٌ لـ(يكنْ) مقدَّرًا جوابًا للأمر؛ أي: يكنْ خيرًا، وفي هذا التَّقدير ربطُ السَّبب بالنَّتيجة، كأنَّ الخيريَّة مترتِّبة على الإنفاق. **والاتِّجاهُ الثّالث**: على أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوف؛ أي: إنفاقًا خيرًا، وفي حذف المصدر المقدَّر تركيز على قيمة الخيريَّة بالإنفاق؛ وفيه جمعٌ بين الفعلِ ونعت مصدره، ونعتُ المصدر حلَّ محلَّ المصدر

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 996.

وقامَ مَقامَهُ فأخذ مدلولَهُ، و**الاتِّجاه الرّابعُ**: هو نصبٌ على المفعوليَّة بـ﴿وَأَنفِقُواْ﴾، والخيرُ المال، وفيه إيقاعُ الفعل على الخير، وتسلُّطُ الفعل على المفعول ﴿خَيۡرٗا﴾ فيه استباحةً المال في جانب الخير[1].

سرُّ التَّعبير بلفظة ﴿خَيۡرٗا﴾ منكَّرةً:

قـصـدُ عـمـومِ الخير

عبَّر القرآنُ عمّا يُنفَقُ بلفظ ﴿خَيۡرٗا﴾ مُنكَّرًا لإفادة العموم، فكلُّ صورِ الخير داخلةٌ فيه، فهو خيرٌ في ذاته، وهو خيرٌ لمن ينفَق من أجله، وهو خيرٌ لمن ينفِقه[2]، فالخيرُ عامٌّ في الذّات وفي الصِّفات، فناسَبَ التَّعبيرُ به في هذا السّياق، وفيه إلماحٌ إلى أنَّ مَن لم يُنفِقْ لم يُحَصِّلْ كمالَ التّقوى، وفيه ذمٌّ للإمساك عن بذل المال.

دلالةُ اللّام في قوله: ﴿لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾:

الـخـيرُ مـبـدؤُهُ ومنتهاه النَّفسُ

دلَّ التَّعبير باللّام في قوله: ﴿لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ على التَّخصيص؛ أي: أنَّ النَّفقة فرضًا كانت أو نفلًا يعودُ أجرُها على الإنسان نفسِه؛ قال تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: 7]؛ فكلُّ ما يفعلُه الرَّجل من خير فلنفسه[3]، فكان التَّقييد باللّام دالًّا على التَّخصيص ومؤذنًا برجوع الخير لفاعله.

فائدةُ التَّعبير بـ﴿لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ لا (نفوسكم):

أهلُ الإنفاق قلَّةٌ

آثر القرآن الكريم التَّعبير بـ﴿لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ لا (نفوسكم)؛ جَرْيًا على عادة القرآن في جمع النَّفس على (أنفُسٍ) في الغالب، حيث ورد هذا الجمعُ في أكثرَ من مئةٍ وخمسين موضعًا[4]؛ أمّا جمعُها على (نفوسٍ) فوردَ على نُدرةٍ، وذلك في موضعين، قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ [الإسراء: 25]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾ [التَّكوير: 7]، والفرقُ بينهما يتمثَّل في القلَّة والكثرة، فالقلَّة في

(1) أحمد درويش، التفسير النحوي الدلالي لسورة النساء من خلال كتاب سيبويه، ص: 167 وما بعدها.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 996.
(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 266.
(4) سعيد اللحام، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: 286 وما بعدها.

الجمع (أنفُسٌ) بوزن (أفعُلٍ)، والكثرة في الجمع (نفوسٌ)، ولعلَّ جمع القلَّة هنا واشٍ بأنَّ المنفقين قلَّةٌ بالنَّظر إلى عدد المسلمين عمومًا، وأنَّ الإنفاق مهما بلغ فهو قليلٌ في جانب عطاء الله ﷻ، أو أنَّ كلَّ ما تأتونه قليل في جانب نِعَمِ الله عليكم، فكان الأوفقُ التَّعبيرَ بالقلَّة لا الكثرة.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾:

صَـوْنُ النَّفس عن الشُّحِّ أمارةُ الفلاح

دلَّت الواوُ في قوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ على الاستئناف؛ لبيان معنًى جديدٍ يرتبط بما قبله، فكأنَّ التَّعبير بالفعل ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مِن فوائد الإنفاق "صونَ النَّفس عن الشُّحِّ المطاع"[1].

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

الـحـضُّ عـلى مكارم الأخلاق

في التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة حضٌّ للنّاس على التَّحلّي بفضيلةِ السَّخاء والكرم[2]، وإشارةٌ إلى تعميم الدَّعوة بوقاية النَّفس من الشُّحِّ؛ أخذًا من التَّعبير بـ(مَن) الَّتي تدلُّ على عموم الخطاب؛ فهو ليس لطائفةٍ بعينها، وإنَّما لكلِّ طائفةٍ[3]؛ واللَّفظُ القرآنيُّ صالحٌ لكلِّ زمان ومكان، ويضاف إلى ذلك تكريمُ المؤمنين بتجنيبهم خطابَ الشُّحِّ بعدم توجيهه لهم، مع كون الجملة مستقلَّةً بنفسها، فكأنَّها مَثَلٌ.

بلاغةُ التَّعبير بالفعل ﴿يُوقَ﴾:

الشُّحُّ عدوٌّ راصدٌ يترصَّدُ الإنسان

آثرَ القرآن الكريم التَّعبير بلفظ الوقاية في قوله: ﴿وَمَن يُوقَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الشُّحَّ عدوٌّ راصدٌ، يتربَّصُ بالنَّفس الإنسانيَّة في أيِّ لحظةٍ يغفلُ فيها الإنسان عن حراسةِ نفسه منه، فإذا غفلَ الإنسان عن هذا العدوِّ دخلَ على نفسه واستولى عليها[4]. وفي ذكر لفظةِ

(1) الشيخ علوان، الفواتح الإلهية: 2/ 421.
(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 299.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 289.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 862.

الوقاية دعوةٌ إلى أنْ يجعلَ المرء بينه وبين الصِّفات الذَّميمة المشارِ إليها بالنَّفس وقايةً تَحول بينه وبينها، فلا يكونَ مانعًا لما عنده حريصًا على ما عند غيره حسدًا[1].

نكتةُ بناء الفعل ﴿يُوقَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعله:

التَّركيزُ على أسباب الوقاية من الشُّحِّ

بُني الفعلُ ﴿يُوقَ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعله؛ تركيزًا على عمليَّة الوقاية من الشُّحِّ؛ وكأنَّ الوقاية لن تكون إلّا بتوفيق اللّه، فحُذف الفاعل للعلم به، ثمَّ في البناء لِما لم يُسمَّ فاعله ترفُّعٌ بالمؤمنين من مخاطبتهم بالشُّحِّ، فلم يُقل: (إن تَتَوقَّوا شُحَّ أنفسكم)؛ مُجانَبةً لِما يمجُّ أسماعهم، وإنَّما كان الحديث عامًّا لا يخصُّ طائفةً بعينِها.

سرُّ التَّعبير بالشُّحِّ دون البخل:

آثرَ القرآن الكريم التَّعبير بالشُّحِّ دون البخل؛ لوجود فرقٍ بينهما؛ فالبخلُ متعلِّقٌ بالجانب المادّيِّ المتمثِّل في عَرَضِ الدُّنيا من مالٍ وغيره، فيقال: منَعَ الرَّجلُ سائلَهُ ما لديه من فضلٍ، وذهب بعضُهم إلى أنَّه منعُ الواجب، ويرادُ به منعُ الزّكاة؛ بل تتَّسع دائرته لتشملَ كلَّ ما أمسك عنه الرَّجل من فضلِ اللّه عليه.

أمّا الشُّحُّ فهو أوسعُ مِن أنْ يبخل الرَّجل بماله وفضل اللّه عليه؛ فهو يشحُّ بالجاه وبالمعروف وبالعِلم، ولأنَّه شيءٌ متعلِّقٌ بالنَّفس؛ لكونها مجبولةً على منع الخير، سواءٌ كان من مال الشَّخص أم من مال غيره، وممّا يدل على أنَّه طبعٌ في النَّفس قوله تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النّساء: 128]؛ لذلك آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بالوقاية من الشُّحِّ؛ لأنَّه أوسعُ وأعمُّ من البخل؛ فمَن وقى نفسَه الشُّحَّ كان لوقايتها من البخلِ أولى[2].

(1) الشربيني، السراج المنير: 4/ 249.
(2) محمد ياسر خضر الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 176.

نكتةُ إضافة الشُّحِّ إلى النَّفس:

الشُّحُّ غريزةٌ في النَّفس وطبيعةٌ فيها

أُضيف الشُّحُّ إلى النَّفس في الآية الكريمة؛ لأنَّ الشُّحَّ غريزةٌ فيها[1]، مقتضيةٌ للحرصِ على المنعِ الَّذي هو البخلُ؛ فالشُّحُّ من طباع النَّفس، فإنَّ النُّفوس شحيحة بالأشياء المحبَّبة إليها، قال تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النِّساء: 128][2]، "فمن عرف حقيقةَ نفسه وما طُبعت عليه عَلِمَ أنّها منبعُ كلِّ شرٍّ، ومأوى كلِّ سوءٍ، وأنَّ كلَّ خيرٍ فيها إنَّما هو فضلٌ من الله منَّ به عليها، وليس منها"[3].

دلالةُ الفاء في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الوقايةُ من شحِّ النَّفس سبيلُ الفلاح

جاءت الفاءُ رابطةً للشَّرط بالجواب، والظّاهر من الآية أنَّ الفلاح مترتِّبٌ على عدمِ شُحِّ النَّفس بشيءٍ من الأشياء الَّتي يقبُحُ الشُّحُّ بها شرعًا؛ من زكاةٍ أو صدقةٍ أو صلةِ رحمٍ أو نحو ذلك، كما تفيده إضافةُ الشُّحِّ إلى النَّفس[4].

سرُّ التَّعبير بالإفراد أوَّلًا ثمَّ بالجمع ثانيًا:

مراعاةُ اللَّفظ والمعنى

في التَّعبير بالإفراد في قوله تعالى: ﴿نَفۡسِهِۦ﴾ والجمع: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾ مراعاةٌ لِلَفظةِ (مَن) الدّالَّةِ على جواز الإفراد والجمع، فَروعيَ اللَّفظ فأُفرِدَ ﴿نَفۡسِهِۦ﴾، وروعيَ المعنى فجُمِعَ (أولئك هم)، وفيه إيماءٌ إلى قلَّة المتَّصفين بذلك في الواقع عددًا وكثرتِهم معنى[5].

دلالةُ التَّعبير باسم الإشارة البعيد:

التَّعظيم وعُلوُّ مكانتِهم ببُعدهم عن الشُّحِّ

دلَّ التَّعبير باسم الإشارة للبعيد (أولئك) على تعظيم هذا النَّوع من النّاس الَّذين يبتعدون عن شحِّ الأنفس، فالبُعد بُعد مكانةٍ، وعلوُّ رتبة؛ أي: العالو الرُّتبةِ[6]، وفيه مزيدُ عنايةٍ بذكرهم،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 246.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 289.
(3) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين: 1/ 235.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 240.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 247.
(6) الشربيني، السراج المنير: 4/ 308.

وفيه إيماءٌ إلى ضرورة جلب المَحمدةِ بالإنفاق، وتحذيرٌ من جلب المذمَّة بالشُّحِّ.

بلاغةُ القصر في ختام الآية:

المبالغة في تحقيق وصف المفلحين

لمّا كانت وقايةُ شحِّ النَّفس فلاحًا عظيمًا جيءَ في جانبه بصيغة الحصر بطريقة تعريف المسند، وهو قصرُ جنسِ المفلحين على جنس الَّذين وُقوا شحَّ أنفسِهم، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ للمبالغة في تحقيق وصف المفلحين الَّذين وُقوا شحَّ أنفسهم، حتّى نُزِّل فلاحُ غيرهم بمنزلة العدم[1]، فصيغةُ القصر المؤدّاة بضمير الفصل مبالغةٌ لكثرة الفلاح الَّذي يترتَّب على وقاية شحِّ النَّفس، حتّى كأنَّ جنس المُفلِح مقصور على ذلك الموقَى[2]، وفي القصر تأكيدُ الوقوع كي لا يشكَّ فيه شاكٌّ، أو ينازعَ فيه مُنازِعٌ، أو يظنَّ ظانٌّ توهُّمَ المشاركة فيه.

دلالةُ التّعبير بـ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

بيانُ كمالِ الفوز وعمومِه في الدُّنيا والآخرة

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالفلاح دون غيره في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ لأنَّ الفلاح هو الظَّفَرُ وإدراك بُغية، وذلك ضربان: دنيويٌّ وأخرويّ، فالدّنيويُّ: الظَّفر بالسّعادات الّتي تطيبُ بها الحياة الدّنيا، وهو البقاء والغنى والعزّ، والفلاحُ الأخرويّ، بأربعةِ أشياء: بقاءٍ بلا فناء، وغنًى بلا فقر، وعزٍّ بلا ذلّ، وعلم بلا جهل. ولذلك قيل: (لا عيش إلّا عيشُ الآخرة)[3]؛ فالفلاح عامٌّ في أمور الدُّنيا والآخرة؛ لذا أوثر في البيان القرآنيِّ، وعلى ذلك يكون ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ هم الفائزين الَّذين حازوا جميع المرادات بتقوى الله، ولأنَّ الفعل (فلح) معناه الشَّقُّ، يقال: شققتُ الأرض؛ أي: فلحتُها[4]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 289.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 95.
(3) الراغب، المفردات: (فلح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح).

وهذا يعني: أنَّهم ما بلغوا مرتبة الفلاح إلّا بعدَ جهدٍ جهيد، وعملٍ دؤوب؛ يؤكِّد ذلك التَّعبير بالاسميَّة الَّتي تدلُّ على الثُّبوت والاستمرار في جهدهم وفي عطاء الله لهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستطاعة والقدرة:

الفرقُ بينهما: أنَّ (الاستطاعة) انطباعُ الجوارح للفعل، و(القدرة): هي ما أوجب كون القادر عليه قادرًا. ولذلك لا يوصف الله تعالى بأنَّه مستطيع، ويوصف بأنَّه قادر، وقيل: الاستطاعةُ أخصُّ من القدرة، فكلُّ مستطيعٍ قادرٌ لا العكس؛ لأنَّ الاستطاعة اسمٌ لمعانٍ يتمكَّن بها الفاعل ممّا يريده من إحداث الفعل، وهي أربعة أشياء: إرادتُه للفعل، وقدرتُه على الفعل بحيث لا يكون له مانعٌ منه، وعلمُه بالفعل، وتهيُّؤُ ما يتوقَّف عليه الفعل. ألا ترى أنَّه يقال: فلانٌ قادر على كذا، لكنَّه لا يريدُهُ، أو يمنعُهُ منه مانع، أو لا علم له به أن يعوزه كذا؟ فظهرَ أنَّ القدرة أعمُّ من الاستطاعة، والاستطاعةَ أخصُّ من القدرة[1].

الشّحّ والبخل:

الشُّحُّ: بخلٌ معَ حرصٍ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، والشُّحُّ: ضدُّ الإيثار؛ فإنَّ المُؤْثِرَ على نفسه تاركٌ لِما هو محتاج إليه، والشَّحيحُ حريصٌ على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شَحَّ وبخل بإخراجه، فالبخلُ ثمرة الشُّحِّ، والشُّحُّ يأمرُ بالبخل؛ كما قال ﷺ: "إيّاكم والشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا"[2]. فالبخيلُ: مَن أجابَ داعيَ الشُّحِّ، والمُؤْثِرُ: مَن أجابَ داعيَ الجود والسَّخاء والإحسان[3]، وقيل: البخلُ منعُ الواجب، والشُّحُّ: منعُ المستحبِّ[4]، وقيل: الشُّحُّ: اللُّؤمُ، وهو أن تكون النَّفسُ كزَّةً حريصةً على المنع، وأمّا البخلُ فهو المنعُ نفسُه[5].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 47.
(2) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب في الشح: (1698).
(3) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 300.
(4) ابن العربي، أحكام القرآن: 1/ 396.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 246.

الفلاح والنَّجاح:

النَّجاحُ: أمرٌ دنيويٌّ، أمّا الفلاح فيشمل الأمورَ الدُّنيويَّة والأخرويَّة، لذا ناسب وصف الفائزين بأنَّهم هم المفلحون؛ ليشملَ الفلاحُ فلاحَ الدُّنيا وفلاحَ الآخرة، فكلُّ مفلحٍ ناجحٌ، ولا ينعكسُ، فقد ينجحُ المرء في أمور الدُّنيا، لكنَّه في أمور الآخرة صفرُ اليدين[1].

(1) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية: 1/ 88.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والستون،
سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 62 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-640-02-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 62 : المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-640-02-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5378070 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"